التيمات (الموضوعات) الصوفية عند الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف

Sufi themes (topics) according to the poet of Sidi Lakhdhar Ben Khlouf

أ.د/ جلول دواجي عبد القادر*

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف الجزائر

dawajiaek@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/09/11ـ تاريخ القبول: 2024/12/07 ـ تاريخ النشر: 2024/12/31

ملخص:

تجيب الورقة البحثية هذه عن جملة من التساؤلات التي تحوم حول الخطاب الشعري للشاعر سيدي الأخضر بن خلوف المستغانمي الجزائري لعل أهمها ما حقيقة التصوف عند الشاعر الأخضر بن خلوف؟ وما أسباب تعلقه بهذا السلوك الذي كان سمة عصره؟ وما هي التيمات أو الموضوعات الصوفية التي يشكلها الخطاب الشعري للشاعر؟ تساؤلات وأخرى يناقشها المقال ويشرحها ويفصل فيها مستندا إلى نماذج شعرية من خطاب الشاعر.

كلمات مفتاحية: العشق–الحب–التوبة–التوسل–المدح– الذكر–التصوف.

* **المؤلف المرسل: أ.د/جلول دواجي عبد القادر.**

Abstract:

This research paper answers a number of questions surrounding the poetic discourse of the Algerian poet Sidi Lakhdar ben Khlouf Al-Mustaghanemi. Perhaps the most important of them is: What is the truth about Sufism according to the poet Sidi Lakhdar ben Khlouf ? What are the reasons for his attachment to this behavior that was characteristic of his era? What are the Sufi topics or themes that constitute the poet's poetic discourse? Questions and others that the article discusses, explains and elaborates on, based on poetic examples from the poet's speech.

Keywords: passion - love - repentance - supplication - praise - remembrance - Sufism.

1 ـ في مفهوم التصوف: رغم الحبر الكثير الذي أسالته الكتب والدراسات والبحوث المتخصصة حول مفهوم مصطلح التصوف فإنها لم تستطع أن تقف وقفة موحدة عند ماهية وحد المصطلح، فالمفاهيم متعددة والرؤى مختلفة والبحوث والدراسات متباينة والكل يدلي بدلوه وفي المصطلح وإن كانت بعض الآراء في الحقيقة ماهي إلا اجترار وإعادة لما قيل من قبل، ولا يمكن ونحن نكتب هذا المقال إلا أن نغرف من مَعين العلماء والمتخصصين حول حقيقة هذا المصطلح وهذا العلم لتوضيح الرؤى وتسليط الأضواء على ما قاله السادة العلماء والأساتيذ المتخصصين في هذا الباب.

ومن الذين وقفوا طويلا وتحدثوا عن التصوف أبو حامد الغزالي فقد أعاره أهمية كبيرة للمصطلح، في كتابه (إحياء علوم الدين)، ومما ذكره هذا الرجل الجهبذ أن لما نزل قوله تعالى: (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) الحاقة: 12، عندئذ توجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلامه إلى سيدنا علي كرم الله وجهه قائلا: سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي"، فيفرح سيدنا علي بهذا الدعاء ويذكر أنه ما نسي وما كان له أن ينسى بعد هذا الدعاء من سينا رسول الله صلى الله عليه وسلم. (الغزالي أبو حامد: إحياء علوم الدين، ج5، ص 47).

وفي باب (ماهية التصوف) نورد أهم الآراء والمقولات ووجهات النظر حول هذا المصطلح ومنها: (هذه الآراء جمعها ولخصها الأكاديميون والمتخصصون في التصوف والطرق الصوفية والأدب الصوفي هذه أهمها:

الرأي الأول: الصفاء والصفو: وهو الأخلاق والتأدب وهو باختصار صدقُ المعية مع الله أو هو صدق التوجه إلى الله بالتخلق بأخلاق الإسلام فهو صفاء القلوب وسلامة النفوس من الأمراض الداخلية التي صعب شفاؤها والبرء منها، التصوف عند هؤلاء هو ذلك السمو الروحي الذي عمل النبي صلّى الله عليه وسلّم على تعزيزه في قلوب أصحابه". (عبد الرازق الكاشاني: كشف الوجوه الغُر لمعاني نظم الدُّر، ص34.) وفي الصرف العربي لما ننسب الكلمة إلى من يتصف بها تصبح صفوي وليس صوفي، وصفوي بعيد معناها عن المعنى المراد.

وللشيخ شعراني في "لطائف المنن" قول يقول فيه: "الصوفية هي حالة تُعبّر عن الحبل القوي الواصل بين الخلق والحق يعرف بالعشق الإلهي، يرتقي مراقيه الخلق عبر درجات ومقامات من الأحوال والمحطات كل محطة توصل إلى الأخرى العالية الفوقية التي هي أفضل من التي تسبقها لكن الوصول إليها شاق وعسير ليصل إلى أعلى الدرجات وهي درجة الاتحاد بالله أو الحق. (عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن، ص22 .)

ويذكر ابن خلدون في (المقدمة) مستشهدا بقول الامام القشيري رحمه البارع في التنظير لهذا العلم: أن الامام القشيري يذكر أنه لا يشهد لهذه اللفظة اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ويضيف أن هذه الكلمة هي لقب ومن قال باشتقاقه من اللفظتين الصفاء أو الصُّفة فذاك بعيد من حيث القياس في لغة العرب. قال: ومن الصوف كذلك أي لا علاقة للتصوف بالصوف كما يدعي

البعض. قلت: والأظهر إنْ قيل بالاشتقاق إنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف." (عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص467.)

الرأي الثاني التصوف من لبس الصوف: أي أن المتصوفة لما يزهدون في متاع الدنيا يرتدون أغلظ وأخشن الثياب كدليل على أن الدنيا فانية وعليهم أن يخشوشنوا فالنعم لا تدوم كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والنفس كما عودها صاحبها إن عودتها الراحة تكاسلت وطلبت المزيد وإن عودتها الصبر والاحتمال تاقت إليه كم يقول البوصيري في بردته:

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

ويذكرون كدليل على هذا أن كثيرا من الصحابة رضوان الله عليهم لبسوا الصوف، والحسن البصري رضي الله عنه كان يقول: "أدركت سبعين بدريا – أي من الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر الكبرى –كان لباسهم الصوف"، وهذا يبين مدى تعلق لفظة التصوف بلبس الصوف كدليل على مجاهدة النفس ورفض كل ملذات الدنيا من طعام ولباس وراحة ونعيم

وبهذا يتصل أهل الصفة بالصوف المعروفة عند الغنم فهما يشتركان في أن الطائفتين كانتا منقطعتين إلى الله، ولبس الصوف نسبة الى الزهد في متاع الدنيا الفانية وقناعتهم بما يملكون من متاع قليل ولباس ومال... (عبد الرحمن عميرة: التصوّف الإسلامي منهجاً وأسلوباً، ص82.)

وذكرت مادة (ص و ف) في السيرة النبوية كما ورد في قول أنس رضي الله عنه أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكل خشنا ولبس خشنا ولبس الصوف واحتذى المخصوف".

الرأي الثالث: التصوف من الصُّفَّة: والصُّفة هي فناء ملحق بمسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة المنورة، فكان الفقراء والمساكين يجلسون في هذا الفضاء لعدم وجود مكان في فناء مسجده عليه الصلاة والسلام يأوي إليه فقراء المسلمين وقتئذ وهم أولئك الذين أخرجوا من ديارهم ظلما وعدوانا ولا مال لهم ولا ولد ولا أهل فقبل سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يلزموا ذاك الفناء وذاك المكان، وفيهم نزل قوله تعالى:﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾(الكهف: 28).

ولكن إذا تم نسبة هؤلاء إلى هذا المكان فإنهم يتسمون بالصُفِّيّين لا الصوفية أو المتصوفة التي نحن بصدد الحديث عنها، ولا يمكن إلغاء أثر سلوك أهل الصفة في تحديد منهاج الحياة عند الصوفية في عصور لاحقة". (عبد الحكيم حسّان: التصوّف في الشعر العربي نشأته وتطوّره، ص32). وهذا رأي غير صحيح وبعيد عن ماهية التصوف والصوفية رغم أنهم يتصفون بأخلاق وآداب المتصوفة التي منبعها الإسلام لأن المنسوب إلى الصفة في الصرف العربي (صُفِّيّ) وليس (صوفيّ).

2_ الرأي الرابع: التصوف من الصوفانة أو الصّوفة: والصوفانة أي بقلة تعرف بأنها قصيرة ورعناء ونسب إليها المتصوفة كونهم كانوا يكتفون بنبات الصحراء مثل هذه البقلة كطعام وغذاء، أو تنسب إلى الصوفة وتعني كل شخص أوكلت له مهمة الخدمة أو العمل في البيت الحرام في الجاهلية قبل الإسلام، وقيل في هذا الشأن إنه أحد رجال يسمى الغوث بن مُر، أهدته أمه كعبد خادم للبيت الحرام وكان معروفا بأن في رأسه صوفة وكان هذا نذر أمه. (عبد الرحمن بدوي: شهيدة الحُب الإلهي، ص27)، وهناك قول ثالث في هذا الأمر أنهم قومٌ كان الناس يعتقدون ولايتهم، ولا يتقبل منهم العمل إلا إذا حضر أحدهم رمي الحجارة ولو لم يحضر ما تُقُبل من أحدهم. هكذا زعموا. هذا عن الجانب اللغوي والاشتقاقي للفظة.

أما اصطلاحا فالتصوف عرفه المنتسبون إليه والمتخصصون وعرفه غيرهم ومن هذه التعريفات:

تعريف مَعروف الكَرخيّ أحد المنتسبين إلى التصوف بأنه: الأخذُ بالحَقائِقِ، واليَأسُ ممَّا في أيدي الخَلائِقِ. ويعرفه الجنيد وهو واحد من كبار المتصوفة في عصره بأنه أن تَكونَ مَعَ اللهِ بلا عَلاقةٍ. وهو عنده كذلك: تَصفيةُ القَلبِ عن موافَقةِ البَريَّةِ، ومُفارَقةُ الأخلاقِ الطَّبعيَّةِ، وإخمادُ الصِّفاتِ البَشَريَّةِ، ومُجانَبةُ الدَّواعي النَّفسانيَّةِ، ومُنازَلةُ الصِّفاتِ الرَّبَّانيَّةِ، والتَّعَلُّقُ بعُلومِ الحَقيقةِ، واتِّباعُ الرَّسولِ في الشَّريعةِ، وهو أي التَّصَوُّفُ أن لا تَملِكَ شَيئًا، ولا يَملِكَك شَيءٌ كما ذكر سحنون.

فرَغمَ كَثرةِ التَّعريفاتِ التي عُرِّف بها التَّصَوُّفُ الإسلاميُّ في كُتُبِ التَّصَوُّفِ وغَيرِها فإنَّنا نَستَطيعُ أن نَقولَ كما قال إبراهيم هلال: إنَّ التَّصَوُّفَ كما يَراه الصُّوفيَّةُ في عُمومِه هو السَّيرُ في طَريقِ الزُّهدِ، والتَّجَرُّدُ عن زينةِ الحَياةِ وشَكليَّاتِها، وأخذُ النَّفسِ بأسلوبٍ منَ التَّقَشُّفِ وأنواعٍ منَ

العِبادةِ والأورادِ والجوعِ، والسَّهَرِ في صَلاةٍ أو تِلاوةِ وِردٍ، حتَّى يَضعُفَ في الإنسانِ الجانِبُ الجَسَديُّ، ويَقوى فيه الجانِبُ النَّفسيُّ أوِ الرُّوحيُّ، فهو إخضاعُ الجَسَدِ للنَّفسِ بهذا الطَّريقِ المُتَقدِّمِ؛ سَعيًا إلى تَحقيقِ الكَمالِ النَّفسيِّ، كما يَقولونَ، وإلى مَعرِفةِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ وكَمالاتِها، وهو ما يُعَبِّرونَ عنه بمَعرِفةِ الحَقيقةِ، وقيل للحصري: (من الصوفي عندك؟ فقال: الذي لا تقله الأرض ولا تظلله السماء)". (أحمد أمين: ظهر الإسلام، ص152).

ومما سبق يتضح أن التصوف هو الأخلاق والسلوك والتأدب بأدب الإسلام التي دعا إليها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسله، ويقال من فاقك في الأخلاق فاقك في التصوف.

ولا يذكر المغرب العربي إلا ويذكر التصوف فالمنطقة معروفة في هذا المجال وخاصة منطقة الجزائر، فكتابات أعلامها وعلمائها في هذا المجال كثيرة وثرية خاصة في الشعر الشعبي، وممن عرف في هذا الميدان وجاء شعرهم نابضا بما عرف به المتصوفة: أبو مدين شعيب التلمساني المعروف بالغوث وهي رتبة من رتب التصوف، وعبد الله بن أبي سعيد المنداسي، والشاعر قدور بن عاشور، ومحمد بن سهلة، وأيضا سيدي لخضر بن خلوف الجزائري وغيرهم، فشعرهم مرآة تعكس مسيرتهم وأخلاقهم التي تتناسب وحياة المتصوفة ممثلة في التواضع والبساطة والانقطاع عن الدنيا وشواغلها والانزواء في ركن معين للعبادة والذكر والاستغفار، والتفكر في الحياة الأخرى.

وقبل استعراض ما جاء من شعر صوفي وموضوعات صوفية اصطبغ بها خطابه الشعري يضطرنا الحديث عن شخصية هذا الرجل العظيم الذي تلون شعره بالحب الإلهي والعشق لرسوله عليه الصلاة والسلام واصطبغ شعره بصبغة صوفية غلبت عليه في جل قصائده.

2-الشاعر الصوفي الأخضر بن خلوف: سيرة ومسيرة (يراجع: (عبد القادر جلول دواجي: قراءة في سيرة الشاعر الشعبي سيدي لخضر بن خلوف/ مجلة الثقافة الشعبية، عدد 33، ص ص 70-85.):

هو لخضر بن عبد الله بن عيسى الشريف الإدريسي من قبيلة مغراوة وهي قبيلة أمازيغية أولى القبائل الأمازيغية التي اعتنقت الإسلام وهي بطن من بطون زناتة البربرية، ونسب لخضر بن خلوف شريف

ينتهي إلى سيدنا علي كرم الله وجهه، كما يؤرخ له من كتبوا عنه.(بخوشة محمد: ديوان سيدي الأخضر بن خلوف، شاعر الدين الوطن، ص 37.).

نعم، إن سيدي الأخضر بن خلوف مغراوي الأصل شريف النسب... في بيت كريم ووطن عزيز مشهور بالكرم فيأول عصر الحكم التركي(محمد بخوشة: الديوان، ص 12+ ص03).

ويتغنى الشاعر بن خلوف بنسبه، قائلا: (بخوشة محمد: الديوان، ص 187)

الله يـرحـم قـائـل الأبيـات الأكحـل و اسم بـوه عبـد الله
المشـهـور اسمه مـن الـفيـات مـغـراوي جـده رسـول الله
و أُمَّـهْ مـنْ بيْتْ مَّحْسنِـاتِ اَلْيعْقُوبِيَةْ لاَلَـةْ خـوْلـةْ

رغم أننا في عصر التكنولوجيا إلا أن المؤرخين لم يتوصلوا بعد إلى تاريخ ميلاد الشاعر لخضر بن خلوف وما عرف عنه سوى أنه ولد في أوائل الحكم العثماني للجزائر، مؤرخا لنفسه: (بخوشة محمد: الديوان، ص 190)

مـن قرن الثمانية اديت سنين اوزايع والايـام هـاملـة و الجـالـب مجلـوب
بفضـل النبي تميت القرن التاسع و الفلك ينثنى والحاسب محسوب

ثم يضيف قائلا : (بخوشة محمد: الديوان، ص 193)

جوزت مية و خمسة و عشرين حساب و تميت من ورا سني ستة شهور
منها مشات اربعين مثل السراب و اللي بقى مشى في مدح المبرور

وتعد (معركة مزغران) ضد الاسبان أهم المعارك التي عايشها الشاعر وشارك فيها وانتصر فيها انتصارا كبيرا، يقول الشاعر : (الديوان، ص 182)

يـا فـارس مـن ثـم جيت الـيوم غـزوة مـزغران مـعـلـومـة
يـا عـجـلان ريـض الـمـلـجـوم رايـت اجـنـاب الـشـلـو مـوشـومـة
يـا سـايـلـني عـن طـراد الـروم قـصـة مـزغـران مـعـلومة

حفظ الشاعر الأخضر بن خلوف كتاب الله في سن مبكرة، وترقى في مدارج العلم حتى عرف عنه انه العالم والفقيه المتضلع في السيرة والحديث والفقه والأدب والتاريخ، يؤكد هذا شعره الذي

طالعَنا فيه غير مرة في قصائده. حفظ القرآن عن شيخه قبل أن يكون صهره الموسوم بسيدي عفيف، هذا الأخير رأى فيه الخلال الحميدة وقوة الذاكرة والحفظ والنباهة والحكمة فاتخذه زوجا لابنته المسماة (قنو).

بلغ الشاعر أربعين سنة كان هذا العمر حياة فارقة بين الشباب ومرحلة أخرى هي حياة زهد وورع و تصوف ومدح لسيدنا رسول صلّى الله عليه وسلّم، وغادر مزغران إلى المكان الذي يحمل الآن اسمه فاتجه نحو العبادة والذكر والاتصال بالله الحق والانقطاع عن الخلق.

تتلمذ على عدة شيوخ منهم: سيدي بلقاسم بوعسرية، وسيدي محمد بن شاعة العالم الفقيه، والشيخ محمد بن الأكحل. (المستغانمي عبد القادر: مستغانم وأحوازها عبر العصور تاريخيا وثقافيا وفنيا، ص 40 وص 95.).

يعتبر ديوان الشاعر أقدم ديوان شعري في الشعر الشعبي الجزائري ينشر في بلادنا جمعه بخوشة محمد رحمه الله سنة 1958م. (المستغانمي عبد القادر: مستغانم وأحوازها عبر العصور تاريخيا وثقافيا وفنيا، ص 276)، وفيه 31 قصيدة.

تعتبر قصيدة "ابقاوا بالسلامة " ربما آخر قصيدة قالها لخضر بن خلوف في حياته، فيها تاريخ لحياته وفيها استشراف لما قد سيحصل في المستقبل وفيها وصايا لأهله وأبنائه ولجميع من يطالع خطابه الشعريي قول: (جلول دواجي عبد القادر: الخطاب الشعري عند سيدي الأخضر بن خلوف دراسة فنية، ماجستير، جامعة تلمسان 2002-2003، ينظر قصيدة "ابقاوا بالسلامة" في الملحق الشعري).

الموت تابعتني و الأرض الباردة ابقاو بالسلامة يا أولاد خلوف

أنت يا محمد اتهلى في خيمتي أنت كبير داري و أنت مولاها

وأنت يا أحمد خذ أدي سبحتي بها تفكرني وقت تقراها

وأنت يا بلقاسم عمم بعماتي تضحى لك هيبة لمن يراها

وأنت يا الحبيب ولدي نطفة من الكبدة خد شملتي و برانيس الصوف

اتهلاو في بعضكم لا تشفوا في العدا قوموا جنازتي و اعطوا المعروف

عاش الاخضر بن خلوف ما يزيد عن مائة وخمسة وعشرين عاما كما جاء في شعره، عمر حافل بأحداث تاريخية بارزة في مقدمتها الغزو الإسباني على أرضه التي كان يحبها وحب الأوطان من الإيمان فخلد هذا الحب في شعره، يقول: (الديوان: ص 193)

جـوزت مائـة وخمسة وعشرين حسـاب وتـميت مـن وراسني ستة اشهـور

ولا يعرف تاريخ لوفاة الشاعر كما لا نعرف تاريخ ميلاده بالتحديد، لقد رحل الشاعر، ولولا شعره لما سمعنا عنه شيئا.

3-التيمات (الموضوعات) الصوفية في شعر سيدي لخضر بن خلوف:

إذا كان الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف قد أسهب في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام فإن شعر التصوف عنده "قد اتخذ ضربا من الغموض-في الغالب-وتعمّد توظيف العبارات التي لها أكثر من دلالة".

بعد اطلاعنا على قصائد الشاعر المطبوعة والمروية تشكلت لدينا عدة موضوعات لها آصرة بموضوع التصوف سنقوم بذكرها وشرحها وتحليلها وفي هذا الصدد.

1- تيمة المدح النبوي:

خلف الاخضر بن خلوف شعرا كثيرا سجل بعضه بعض المهتمين مثل الحاج محمد الغوثي بخوشة سنة 1958 م، وهناك ديوان آخر تحت الطبع، جمع قصائده الحاج محمد الحبيب حشلاف يحتوي على 56 قصيدة موزعة على 245 صفحة كما ورد في بعض الكتابات ولسنا ندري إن كان صدر الكتاب أم لا لأن الحبيب حشلاف مات سنة 2005م. وهو من مستغانم منطقة الشاعر ومن مواليد الجلفة سنة 1924م. -رحمه الله- وأغلب الظن أنه لم ينشر ولا يزال مخطوطا لدى العائلة فكان المهتم بالتراث الحبيب حشلاف قد وعد بنشره وسبقه الأجل قبل إتمام العمل. (المستغانمي عبد القادر بن عيسى: مستغانم وأحوازها عبر العصور، ص 40.)، وأيضا هناك رسالة ماجستير من الباحثين المهتمين بالتراث والثقافة والأدب الجزائريين جلول دواجي عبد القادر الذي أحاط بالشاعر بحثا وتفصيلا وتدوينا لتراثه في رسالة ماجستير تقدم بها لجامعة تلمسان عام 2003م، موسومة بـ: (الخطاب الشعري عند سيدي الأخضر بن خلوف دراسة فنية)، وهي تعتبر أول رسالة أكاديمية حول هذه الشخصية الجزائرية، والسؤال المطروح: كيف بشاعر عمر أكثر من مائة وخمس وعشرين

عاما لا نملك من شعره سوى 56 قصيدة مطبوعة ينضاف إليها ما جمعة الباحث جلول دواجي عبد القادر في رسالته في الملحق الشعري كقصائد تجمع وتدون لأول مرة؟ علما بأن الشاعر كان في أيام الاحتضار ينظم شعرا بغض النظر عن أيام حياته العادية؟

طرق سيدي بن خلوف بابا واحدا من أبواب الشعر، ومدحه ممزوج بالحماسة والحكم والزهد، بعيد كل البعد عما لا يناسب الولي الصالح كالغزل والرثاء، وما بكى إلا على تفريطه أو شوقه للرسول صلى الله عليه وسلم ...، فلم يضارعه أحد من شعراء الملحون في المدح. (الديوان ص06).

أخذ غرض المديح النبوي– حصة الأسد- في الأشعار العربية ، ومنها الشعر الشعبي الذي يعرف باسم المديح ، وكما هو معروف أن المدح يطرقه الشعراء لتمجيد صفات الممدوح و ذكر خصاله و أعماله ومناقبه ، وقد تكون الغاية منه إما اعترافا بجميل الممدوح و صنيعه و إما للتكسب غير أن المدح في شعر سيدي الاخضر بن خلوف ليس للتكسب أو اعترافا بالصنيع ، بل الغاية دينية بحتة، تتمثل في رجاء الشفاعة و طلب الغفران للوالدين ولشخصه وللمومنين جميعا، فيذكر أنه رأى سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم تسعا و تسعين مرة، كما ورد ذلك على لسانه حين قال : (الديوان، ط2، ص 46)

يـا مـحـمـد أنـت سـيـدي صـلـى الـلـه عـلـيـك لـبـدا

تـسـعـة وتـسـعـيـن رؤيـة والـعـاطـي مـا زال يـعـطـي

اصطبغ المديح النبوي عند الشاعر بعاطفة دينية صادقة طافحة بالأمل والرجاء في شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، ويعترف فيه الشاعر بأن حب المصطفى قد تمكن من سائر جسده، وأنه العين التي يرى بها الحياة، ثم يستعطفه بقدر ما تسدي النحلة جحرها، وما تبذله من جهد و عناء لكي تخرج للناس شهدا فيه شفاء للناس من أمراضهم وآلامهم. (التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص 51.)، ويتجلى هذا واضحا جليا في قصيدة "أحسن ما يقال عندي" إذ يقول : (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 41.)

أحـسـن مـا يـقـال عـنـدي بسم الـلـه و بـيـك نـبـدا

حـبـك فـي سـلـطـان جـسـدي مـا عـزك يـا عـيـن وحـدا

كـيـف الـنـحـلـة الـلـي تـسـدي تـبـنـي شـهـدة فـوق شـهـدا

يـــا مـحـمـــد أنـت ســيـــدي صـلـى الله عـلـيـك لـبـدا

ويضيف الشاعر مادحا: (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 41.)

اللـهـم صـلـــي و سـلـــم طـــول الـدهـر عـلى نـبـيـنـا

قـدر نـجـوم اللـيـل الأظلـم و الآمـــطـار الـــنـازلـيـنـا

لـولا أنـت لا نـــور جـنـــة تـشـرق و لا نـار تـسـنـي

نـحـتـاجـوك آلـهـيـه وهـنـا يـا مـن بـيـك اللـسـاس مـبـنـي

وهناك قصيدة أخرى في مدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم تعرف عند سكان المنطقة (مستغانم) باسم (الخزانة)، يقول فيها:

بسم الله نبتدا و بالحمد نختموا كيف البادى في الكتاب حتى قضاه

يا معشر المومنين صلوا وسلموا على من عزه و فضله واصطفاه

صلى الله عليك يا النبي العربي يا سراج الدهر يا المرسل نبينا

يسترسل الشاعر في مدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم بذكر شمائله و فضائله ، ووصفه بكل صفاته (مولى احمد، شفيع عرب المعاصي ، عز ألا رمال ، كفيل اليتامى ، فكاك المسلمين يوم القصاص، كريم الكراما، مفتاح الخير ...) ، ويصلي عليه بقدر عدد خلق الله ، قدر مطر السحاب، والملائكة ، ورمال الصحراء وعدد الأيام والليالي والفصول، وعدد الكتب والحروف ونقط الحروف، وقدر عدد رمال الصحراء، والزرع والحبوب والحوت والبحار والمحيطات ، وقدر عدد النحل والنمل والذباب، وقدر كل صغيرة وكبيرة، وما يرى وما لا يرى، وغير ذلك مما خلق الله من خلق لا يحصى ولا يعد، وفي هذه القصيدة يعدد الشاعر معجزات خاتم النبيين و المرسلين التي خصه الله عز وجل بها مثل (المظلل بالغمامة، شفيع عرب المعاصي، فكاك المسلمين يوم القصاص ، عظيم الشمايل ، رحمة الإسلام، القرآن...). وهذه بعض المقتطفات من القصيدة (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 65.):

صلى الله عليك قدر الاوراق في الفرع وعدد الشعر الرقيق مع من كساه

صلى الله عليك قدر الاثمار و الزرع وفراشه وغطاه والمجرد سيفاه

قدر الشيب اللي كان اسود غرابي تتبدل الانوار تعود متلونين

ثم ينتقل إلى ذكر أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم كما رآه في المنام يقول (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 71.) :

يا شنط الكفين يا عضيد الروامق يا راكب البراق و نجيب العشاري

مادامت عمري نمدحك يالصادق إلى أن تضحى يدي اليمي تحت عداري

يواصل الشاعر في وصف ممدوحه في قصائد أخرى منها قصيدة (ألِف استمثلوا كلامي)، وهي قصيدة في شكل حروف الهجاء من ألفها إلى ياءها يستعظم فيها الشاعر خصال ومناقب ممدوحه عليه السلام ، مع الصلاة عليه في نهاية كل مقطع ، ويسميه بكل أسمائه ، ويصفه بأحسن صفاته ، ويذكر بالكثير من خلاله و خصاله و فضائله ، وهذه بعض المقاطع من هذا المديح النبوي (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 56.):

صلى الله عليه قدر حروف ألف محمد الشريف اسمه المفضل

المصلي عليه مرة له عشرة والعشرة بالميا من الكنز الغالي

والميا ترجع ألف موزونة حمرا ماذا من ربح في صلاة المرسالي

إن هذا ليتقاطع مع حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا". (النووي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ص 491.).

ثم يضيف الشاعر قائلا: (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 61.)

صلى الله عليه قدر حروف الصاد صاحب المعجزات منها الفرقان

صلى الله عليه قد حروف الضاد الضبي الشارد نطق لنور أعياني

شيئا لا يحصى معجزاته يا حضرة لو كانت الاودية مداد أخضر جا لي

ويستمر الشاعر في الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى آخر مقطع.

ومن شواهد المدح ينتقل الشاعر في قصيدة أخرى بعنوان "مفتاح خير لا ينفذ" يستعظم فيها ممدوحه، في أبيات رائعة روعة شعره، يقول بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 80.):

لو كانت الاكوان جبال يقال فيك انت الربوة

لو كانت الاكوان جمال يقال فيك انت الدروة

لـو كـانـت الاكـوان احـمـال يـقـال فـيـك أنـت الـعلوة
لـو كـانـت الاكـوان شـهـد مـفـروز مـا مـثـلك شهـدة
لـو كانـت الاكـوان حـلـي يـقـال فـيـك انـت الـدرة
مـا رات عـيـن ولا شـافـت مخلـوق مـثـلك في الـدنـيا
يـا سـيـد الأمـة مـحـمـد صـلى اللـه عـلـيـك لبدا

ومن مديحه للرسول الأعظم، وصف الصورة الكاملة الدقيقة كما رآه في المنام يقول (قاضي محمد : الكنز المكنون في الشعر الملحون، ص 11.):

صلى الله عليه قـد أحروف الكاف كامل الوصف شم الأنف أقن العرنين
واسع المنكبين مجمع الأكتاف مرشوش الخد و الجبين كحل العينين
مربوع القد معتدل شتن الاكفاف سبيل الشعر مستدل ابغير دهين
أفلج الانسان مبتسم باهي الغرة كأن الشمس من اجبينه تضوى لي

وهذا الوصف يتوافق مع مع وصف أم معبد الخزاعية واصفة سيدنا رسزول الله صلى الله عليه وسله لزوجها بأن وضاءته ظاهرة ووجهه أبلج وخلقه حسن، لم تُعِبه ثجلة، ولم تزر به صعلة، قسيم وسيم، دعج في عينيه، ووطف في أشعاره وصحل في صوته وسطع في عنقه أكحل أحور، أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، علاه الوقار إذا صمت وعلاه البهاء إن تكلم، من بعيد فهو أجمل الناس وأبهاهم ومن قريب فهو أحسنهه وأحلاهم، منطقه حلو، فضل، لا نزر و لا هذر....." (ابن القيم: زاد المعاد، ص45.).

ويتوافق مع وصف علي بن أبي طالب فقال: "ليس بالقصير المتردد ولا بالطويل الممغط، وليس بالجعد القطط، ولا بالسبط، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، و كان له تدوير في الوجه، وكان أبيض مشربا، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، دقيق المسربة، أجرد، شتن الكفين والقدمين... أجرأ الناس كفا، و أجرأ الناس صدرا، و أصدق الناس لهجة، و أوفى الناس ذمة،... من رآه بديهة هابه، و من خالطه معرفة أحبه..." (المباركافوري صفي الرحمن : بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام، ص 458.)

ويتوافق وصف الشاعر مع وصف ابن عباس الصحابي حيث وصف النبي صلى الله عليبه وسلم بأنه: "كان أفلج الثنيتين...وكان في أشفاره غطف، وفي لحيته كثافة، و كان واسع الجبين، أزج الحواجب في غير قرن بينهما، أقنى العرنين، سهل الخدين، .....أشعر الذراعين و المنكبين، سواء البطن و الصدر، مسيح الصدر عريضه، طويل الزند، رحب الراحة، سبط القضب، خمصان الأخمصين، سائل الأطراف، يخطو تكفيا ويمشي هونا".(المباركافوري صفي الرحمن : بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام، ص 460.)

وهناك شهادات كثيرة لصدق مدح الشاعر لممدوحه منها شهادة شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله حيث يقول: "ومن شعراء المديح النبوي الأكحل بن خلوف (...) وقد اشتهر بهذا الباب (...) فأصبحت قصائده تغنى و تروى على مختلف العصور و قد أشاد أبو راس به وقال إن شهرته بمدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم كشهرة علَم تونس المشهور ابن عروس.... وما يزال شعر بن خلوف يحفظه الناس ولاسيما مدائحه النبوية"" (سعد الله أبو القاسم تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ص + ص448) + (ص201).

ويذكر الشاعر بأنه كان مادحا للرسول صلّى الله عليه وسلّم مدة طويلة أي منذ كان عمره أربعين سنة، وللعلم فإن الشاعر عاش أكثر من مائة وخمس وعشرين سنة، وبعملية حسابية بسيطة نستخلص أن مدح الشاعر للرسول دام أكثر من خمسا و ثمانين سنة، أورد يقول: (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 193.)

جوزت مية و خمسة و عشرين حساب و تميت من وراسني ستة اشهور
منها مشات اربعين سنة مثل السراب واللي بقى مشى في مدح المبرور

إن شعر المدح لسيدي الأخضر بن خلوف يتمتع بعاطفة دينية صادقة ، طافحة بالأمل والرجاء في شفاعة محمد صلّى الله عليه وسلّم يوم القيامة ، و إيمانا قويا يعترف فيه الشاعر بأن حب المصطفى قد تمكن من سائر جسده ، و انه العين التي يرى بها الحياة "(التلي بن الشيخ : دراسات في الأدب الشعبي، ص 51.)، و المدح عند الشاعر بن خلوف يتخذ صورة مغايرة لما هو معتاد ومألوف في شعر المدح لدى كثير من شعراء الشعبي أو الفصيح ، إذ ان في هذا الأخير تمجيد للممدوح ، وتعظيم لشأنه و ذكر محامده لا شيء إلا للتكسب أو الاسترزاق أو المال أو أملا ورجاء

للرتبة ، و كثر هم الشعراء المادحون من يختارون ممدوحيهم سلطانا أو وزيرا أو صديقا لهم في الحكم ، ولما نجد شعراء مدحوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم مثلما مدحه الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف " ولم يرتبط مدحه بشيخ من الشيوخ أو زاوية من الزوايا شأن أغلب الشعراء الشعبيين و إنما حافظ على شخصيته كعالم، وشاعر له رؤيته الدينية التي ترفض التبعية و الولاء للأشخاص"(التلي بن الشيخ : دراسات في الأدب الشعبي، ص 66.). فكان مدحه خصيصا للرسول صلّى الله عليه وسلّم وفقط. لذلك فإن سبب شهرة الشاعر يعود إلى هذا المدح المتميز الخالص الذي لا يزال المخيال الشعبي الجزائري يحفظها ويحفِّظها.

2-تيمة العشق والحب النبوي: العِشقُ فِي التفكير الصُّوفِي هو المقام الأخير من الوصول والقرب، فيه يُنكر العارفُ معروفَه، فلا يبقى عارفٌ ولا معروفٌ ولا عاشق ولا معشوقٌ ولا يبقى إلاَّ العشق وحده، والعشق هو الذَّات الصِّرفُ، الذي لا يدخل تحت رسمٍ ولا وصفٍ... فإذا امتحقَ العاشِقُ وانطمسَ، أخذَ العِشقُ في فناءِ المعشوق والعاشِق، فلا يزالُ يُفني منه الاسمَ ثمَّ الوصفَ ثمَّ الذَّات؛ فلا يبقى عاشق ولا معشوقٌ، فحينئذٍ يظهر العاشقُ بالصُّورتين، ويتَّصفُ بالصِّفتين، فيُسمَّى بالعاشقِ ويُسمَّى بالمعشوقِ (عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر و الأوائل، ص 85.)، يقول الشاعر: (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 41.)

احسن ما يقال عندي ... باسم الله وبيك نبدا
حبك في سلطان جسدي ... ما عزك يا عين وحدا
يا محمد انت سيدي ... صلى الله عليك لبدا
لا غيرك مناع يمنع ... من سطوة مول الموالي
لا غيرك شفيع يشفع ... من هو عرة بحالي
داوني بدواك نبرا ... من وسواس آلا نراه
فضل الله كتابه عندي ... يكفيني قوتي وغدا
نهزم به القوم وحدي ... نفسي و الشيطان الأعدا

هذا مقطع صوفي محض يتجسد العشق عند الشاعر تجسيدا لا نظير له فعشقه للحق بعيد عن رياء الخلق عشقه هو الشفاء وهو الطعام والشراب وهو قوته وغذاؤه، أليس هذا هو العشق الإلهي الحقيقي.

ويقول الشاعر في مقطع آخر من قصيدة أخرى: بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 74.)

درکي عليك وعلى ربي هو اللي آزرع ثمرة فيا
أنا آطلبته يوف طلبي وتعود سيتي منسيا
حتى نجيك يا محبوبي ويرضى الكريم بالمنيا
ماني وزير ما ني قايد مالي رحيل تهزم مني الأعقاد
ماني بالامحال مشيد مولى قبيل تجري بي ا الميعاد
الشيب لاغناه يلحقني يضحى الشباب على تاتا
القبر لا غناه يملكني يضحى التراب لي وراثا(

ومن الشعر الصوفي قصيدة (محمد خير الأنام) (محمد بخوشة: الديوان، ط2، ص 84.):

يا رب يا ذا الجلال يا من لا عين تراه
آغفرلي فيما مضى لي بحرمة كل جاه
واسمح لي فيما بقى لي يا من لا رحيم سواه
آجعل باب الذكر فامي نذكر محمد بالدوام
يا ماذا من خير باسط في الصلاة علي الرسول
هي أسرع من قوس رامي وأنفد من كل سهام
كنز ما كنزوه كرامي في الصلاة و السلام

هذه هي حال الشاعر حين العشق، حال جعلته يحب بصدق ويقول بصدق ويعبر بصدق حتى نال الخلود فاسمه خالد متى ما ذكر الحب والعشق خصوصا لما يكون المحب والمعشوق هو سيجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن الحب والمدح والعشق أخذ القسط الكثير من شعر الشاعر بن خلوف، فهو يعتبر – بحق – شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يتصدر قائمة الشعراء المادحين في الفصيح والشعبي دون منازع.

3–تيمة الموت: كثيرة هي الكتابات التي تحدثت عن الموت كموضوع دال على نهاية الحياة الدنيوية والفراغ من العمل الذي يقرب الخلق من الحق والانتقال إلى العالم الأخروي الذي فيه حساب الحق للخلق وهناك حساب ولا عمل. وفي أشعار لخضر بن خلوف ما يدلل على هذه الحقيقة التي لا ينجو منها أحد من الخلق، فسيدي لخضر بن خلوف لما أحس بدنو أجله وفارقة الأهل والخلان جمع أهله وأولاده، وأصاهم وصايا عديدة هي مكنونة في آخر قصيدة من الديوان بعنوان: (ابقاوا بالسلامة) (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 190.):

اتـهـلاوا يـا أولادي فيـمـن جـا زايـر اكـرمـوه وعـزوه يـا سبـط الاحرار
ارفعوا عـلام خـديـم الله بـالظاهـر أصله اعـزافري من جبل الصرصار
سبعين عـام عـداها لـي شـاكـر جاري في خدمتي كل ليلة و نـهار
انـت يـا مـحمـد اتـهـلـى في خيـمتـي انـت كبيـر داري و انـت مـولاهـا
وانـت يـا بـلقـاسم عـمم بعـمامتـي تـضحـى لك هيـبـة لـمـن يـــراهـا
و انـت يـا مـحمـد خـذ ادي سبحتـي بـهـا افتكرنـي و قـت تـقـراهـا
و انـت الحبيب ولدي نطفة من الكابدة خـد شـملتي و بـرانيـس الـصـوف
اتهلوا في بعضكم لا تشفوا في الاعدا قـموا جنازتي و اعـطـوا الـمعـروف
اتهلوا يـا أولادي خيتكم هـجالـة حفصة بنت الاكحل مداح البشير
هـذي وصيـتي لا نـاقص لا زايـدة لاتـفركتوا نـظامـي للي متلـوف
هـذي وصيتي ديروها شد الـرؤوس يـوصيكم الخلوفي بعلم التبيين

ويوصيهم بدفنه عند النخلة قائلا (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 94.):

الـنـخـلـة مـنـزلـهـا احـذايـــا نـظـلل فـي ظـلـهـا الـبـعـيـدا

ويصف هذه النخلة قائلا: (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 193.):

نخلة مثبتة تلقح بعد اليبوس احذاها يكون قبري يا مسلمين

يؤكد لنا القرآن هذه الحقيقة في آيات عدة من القرآن الكريم حيث يقول: "كل نفس ذائقة الموت" العنكبوت: 57: "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" الرحمن:25.

وسيدي لخضر بن خلوف رغم أنه عاش أكثر من مائة وخمسة وعشرين سنة وستة أشهر كما في شعره يذكر تحدث عن حقيقة رحيله التي كان كما يبدو أكثر تهيئا وأكثر استعدادا من غيره لها قائلا: (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 193.):

جوزت مائة وخمسة وعشرين حساب وتميت من وراسني ستة اشهور
من قرن الثمانية أديت سنين اوزايع والأيام هاملة و الجالب مجلوب
بفضل النبي تميت القرن التاسع و الفلك ينثنى و الحاسب محسوب

ويضيف الشاعر في قصيدة أخرى (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 85.):

يا ماذا من عين نايمه يرجاها النوم الطويل
و ماذا من راس في السما ما عارف الموت تصيل
حاسب دار الشوم دايمه ولا عنده منها ريحان
لاتدبير ولا استقام ولا ترشيد و لالجام

وهذا يتناص مع خطاب علي ـ كرم الله وجهه ـ للدنيا قائلا: إليكِ عني يا دنيا، غري غيري يا دنيا ، أإليَّ تعرضتِ أم إلي تشوقتِ يا دنيا ؟ هيهات هيهات، غرّي غيري، قد أبنتكِ ثلاثا لا رجعة فيها، فعمركِ قصير وعيشكِ حقير وخطركِ كبير.

وعن موضوع وتيمة الموت هناك قصيدة أخرى بعنوان (الموت لا غنى تدركني) اخترنا هذا المقطع (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 138.):

الموت لاغنى تدركني صح الخبر بلا شك ولا ارتياب
ليته الرحيل ما يأتيني في كل حين حجلة سافر بها العقاب
ما أقواك راقدة يا عيني ما تتفكري رحيلك و الرقدة في التراب
ما أقواك راقدة وتنامي ما في الرقاد عندي حاجة
ذموه ساداتي قدامي النوم الطويل ليه اترجى
يا عين لا تنامي بتا اتفكري عذاب القبر

في القصيدة عديد الالفاظ والمظاهر التي تتعلق بالموت كتيمة من تيمات التصوف، فشبهه بطائر العُقاب الذي ينقضُّ على فريسته دون يخبرها بشيء، فالموت الكل سواء عنده "وما تدري نفس بأي أرض تموت" لقمان33 .

ويوجه الشاعر خطابه الرافض لعينه ونفسه التي يذكرها برحلتها بعد الموت مستقر في القبر، وأسئلة الملائكة فحساب وعقاب، وصراط وميزان وجنة أو نار: "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا" سورة آل عمران30.

يختم الشاعر القصيدة بتعريفنا ببعض رجالات التصوف عصره كسيدي شفيق والساخي والقيرواني صاحب الرسالة في الفقه كدليل على أن الشاعر كان مطالعا للفقه وللعلم، ومعروف الكرخي المنتسب للتصوف في زمانه البيّن تصوفُه وأيضا عبد القادر الجيلانى المشهور "سلطان الأولياء، وقطب الأقطاب، والغوث، وعضد الإسلام،(...) مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفة،(...) وتتسم طريقته بالإصلاح والإرشاد والتسامح ونشر المعرفة والعلم، ومحاربة المستعمر المحتل الغاصب للأرض، وهي أول طريقة ظهرت في العالم الإسلامي وانتشرت بالمغرب العربي عن طريق مصر والأندلس ... ابراهيم مياسي : القادرية ودورها في نهضة سوف، جريدة البصائر الأسبوعية ، عدد47ص07.)

يذكر الشاعر من طرف خفي تارة ومصرحا تارة ثانية أنه من مريدي الطريقة القادرية تعد كما ذكرنا أول طريقة ظهرت إلى الوجود، وتفرعت عنها مجموعة طرق ساهمت في حفظ أخلاق الإسلام ونشره، وكان الشاعر في مرات كثيرة يذكر صاحب الطريقة القادرية عبد القادر الجيلاني ينظر: مرتاض عبدا لحكيم: الطرق الصوفية في الجزائر أصولها وتطورها سنة1939م، جامعة تلمسان 1999/1998.).

مات الشاعر، ورحل عن الدنيا والخلق بعدما قضى أجله الطويل في إصلاح الفساد وإرشاد العباد واصفا وكأنه يحس بما سيحدث له بالتفصيل وذكر الجزئيات عن الموت في قوله (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 193.):

الـمـوت يـا أولادي للخلـوفي قـاصـدة سفـود نـار انـطفـا فـي وسـط الـصـوف

رحل الشاعر جسدا ، وبقي اسمه و شعره و تراثه خالدا دالا على شخصية بطولية مجاهدة متصوفة عاشت التصوف وعرفته وتذوقت حلاوته وعاشته وعايشته بقلب طاهر فالقلب إذا كان طاهرا رقّ، وإذا رقَّ راق، وإذا راق ذاق، وإذا ذاق فاق، وإذا فاق اشتاق، وإذا اشتاق اجتهد، وإذا اجتهد هبت عليه نسائم الجنة فيفرح بالطاعة، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن اغترف نال الشرف كالذي تحلى به لخضر بن خلوف.

4-تيمة الذكر والإقبال على الله: من القصائد التي نستشهد بها في هذا الموضوع قصيدة (نبتدأ الكلمة) يؤكد فيها الشاعر حقيقة الذكر وخاصة كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله)، فبها تستقيم النفس، ويتقوى الإيمان، وهي عمود الدين وأساسه، يقول الشاعر. (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 160.):

نبتدأ الكلمة مفتاح النظام فاز من عظمها وأكرم نزولها
لا إله إلاّ الله سلطانة الكلام متني يا رب مسلم نقولها
لا إله إلاّ الله حصني من الجحيم من دخل حصن الله لاخاف ولاندم
لا إله إلاّ الله تبري من السقام ضامنة المغفرة لمن يقولها
لا إله إلاّ الله كنز الموحدين لا إله إلاّ الله مفتاح لكل باب
لا إله إلا الله بالنفي و الثبات الثبات لله و النفي لغيره
لا إله إلاّ الله أساس الجهاد فضل أهل التوحيد والشهادة

هنا تتبدى فضائل كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله) فهي فاتحة الدخول في الإسلام، ومن قالها عند خروج روحه فله الجنّة، وهي حصن من النّار، وهي دواء المريض من وساوس الشيطان والهوى والنفس، ثقيلة في ميزان الحسنات، فلا إله إلا الله كلمة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان، ويدعو الشاعر إلى الاستقامة وترك الشهوات والفتن، يقول (محمد بخوشة: الديوان ط2، ص165):

واينهم الخلفاء مع الآصحاب آسيادي أبوبكر وعمر وعثمان في اللحود
لاش بعد علي زين السيف ترقدي لاش بعد السته ما تمطر الخدود
آنتبه ياغافل بركاك من المنام واترك شهوات النفس تبرى عيوبها
اتفكر يوم تاتيك الموت كالسهام بغتة تاتيك من بعد بعدها

ويتوافق هذا مع مقولة الغزالي يؤكد فيها فضل هذه العبارة بان العبد لا يزال في خلوته على لسانه يردد الكلمة هذه مع مواطأة القلب حتى تصير هذه الكلمة متأصلة في القلب مزيلة لحديث النفس ينوب معناها في القلب عن حديث النفس، فإذا استوت الكلمة وسهلت على اللسان يتشربها القلب فإذا سكت اللسان لم يسكت القلب"(الغزالي أبو حامد: إحياء علوم الدين، ج5، ص 129.).

5–تيمة الاستقامة: وعن الاستقامة في التفكير الصوفي يذكر ابن خلدون أن المرآة الصقيلة إذا كانت مقعرة أو محدبة، وحوذي بها جهة المرئي، فإنه يتشكل فيه معوجا على غير صورته، وإن كانت مسطحة تشكل المرئي صحيحا، فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال. (ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، ص 383.).

ويقول الغزالي في (إحياء علوم الدين) في هذا الصدد: "إنّ لكلّ وقت –يعمم كل زمن –أدب، ولكلّ حالة – تعميم الأحوال– أدب، ولكلّ –تعميم المقامات– مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول (...) ،فحُسن أدب الظاهر عنوان حُسن أدب الباطن، لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: "**لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**" (الغزالي: احياء علوم الدين، الجزء الخامس، ص 65.)

يقول سيدي الأخضر بن خلوف (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 74.):

دركي عليك وعلى ربي	هو اللي آزرع ثمرة فيا
أنا آطلبته يوف طلبي	وتعود سيتي منسيا
حتى نجيك يا محبوبي	ويرضى الكريم بالمنيا
ماني وزير ما ني قايد	مالي رحيل تهزم مني الأعقاد
ماني بالامحال مشيد	مولى قبيل تجري بي ا الميعاد
الشيب لاغناه يلحقني	يضحى الشباب على تاتا
القبر لا غناه يملكني	يضحى التراب لي وراثا

إنّ شعر التصوف عند سيدي الأخضر بن خلوف نابع من ثقافته الدينية الواسعة، ومن رجل زاهد متصوف غارق في حب الله ورسوله، رضع من حليب الثقافة الاسلامية وتشبع بتعاليمها وتمسك بما

دعا به القرآن وما آتانا به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتدى بأخلاق سادتنا الصحابة والخلفاء والتابعين وأخذ من زهد العلماء والأولياء والمتصوفة الصالحين، كان حقا على الله أن يبوّئه الله مكانة الأولياء المخلصين الصالحين.

لعل القصائد الصوفية في شعر لخضر بن خلوف أسهمت مساهمة كبيرة في الدعوة إلى الخير بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فكل إنسان معرض للخطإ ومن أراد النجاة فعليه بالتوجه والاقبال على الله بقلب صاف وسريرة نقية. فالتصوف هو صفاء ووفاء وفناء في حب الحق.

6-تيمة الرؤى الصادقة: ومن مظاهر تصوّف الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف: الرؤيا الصادقة، حيث يؤكد في شعره بأنه كان مرارا وتكرارا يرى في رؤاه سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام في المنام، حيث يقول (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 46.):

يـا مـحـمـد أنـت سـيـدي صلّى الله عـلـيـك لـبـدا

تـسـعـة وتـسـعـون رؤيـة والعـاطـي مـازال يـعـطـي

إنّ الرؤى الصادقة لتشف عن سريرة الخلق الصافية والعبادة النابعة من الجسد والروح من سيدي لخضر بن خلوف، وهي ليست رؤى عادية بل رؤى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن رأى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقد رآه حقا، لأن الشيطان به، وكما يقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم: "**الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة**".(ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة: ص 389.) ويقول: "**لم يبق من المبشرات إلاّ الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له**"(ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة: ص 389.).

ويقول ابن خلدون عن الرؤيا:" الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان، فالرؤيا التي هي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل، والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة، تفتقر إلى تعبير، والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث"(ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة: ص 391.).

والعجب من خطاب الشاعر رؤاه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم تسعا وتسعين مرة، فهذا أصدق مظهر من مظاهر تصوف الشاعر وإيمانه الصادق وإخلاصه لله وحده، يقول (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 84.):

حـتـى نـرى خـيـر الأنـام عـشـقـي مـا مـثـلـه غـرام
وتـشـفـي مـنـه نـيـامـي فـي الـيـقـظـة دون الـمـنـام

الشعر الصوفي الخلوفي يتميز بالغموض إلى درجة التعمية أحيانا في بعض الأحيان، فالمتلقي لا يفهم ماذا يقصد الشاعر من خلال شعره، وهي لغة رامزة فيها الإلغاز والإضمار لمعان تخفى عن العوام يفهمها المتصوفة ليس إلا، يقول: (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 42.):

داونـي بـدواك نـبـرا مـن وسـواس ألاّ نـراه
إذا كـان ابـلـيـس عـبـره عـنـدي حـيـا ولا تـراه

يعلق التلي بن الشيخ معقبا على هذين البيتين: "يرى بن خلوف أنّ نقطة الضعف في سلوك الإنسان تكمن في القلب، فإبليس يلج إلى رغبات الإنسان من القلب فيزين له طرق الشر، ويستدرجه إلى الهاوية من حيث يدري أو لا يدري". (التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص 54.)، ثم يقول: "إنّ اسم الشيطان يرتبط بارتكاب المعاصي، والوقوع في الخطايا فكلما ارتكب المرء إثما إلا وكان الشيطان وراء هذا السلوك ويرد كثيرا على ألسنة العامة (انعل ابليس)، إذا ما أظهر الإنسان الغضب، أو قام بفعل غير مقبول لدى الجماعة، باعتبار إبليس أو الشيطان هو السبب فيما يحدث للناس من شجار وسباب وشتم". (التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص 53.).

فالشاعر ربط بين الشر وإبليس كما يتمثله المخيال الشعبي، وإنّ الغموض يكمن في كون الشيطان أو إبليس عند الشاعر حيّ ولا يراه وهذا غموض لا نفقه ما يقصد الشاعر بذلك، ولم يمض طويلا حتى يفاجئنا بقوله: (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 42.):

مـن تـدبـيـر ابـلـيـس الأعـور صـهـدتـنـا يـا نـاس فـتـنـة
يـخـتـلـنـا مـن الجـنـب الأيـسـر مـن تـمـزيـق الـديـن خـفـنـا
قـبـضـت الـشـيـطـان بـيـدي واعـطـيـتـه مـيـتـيـن جـلـده

وهذا غموض آخر لا نعرف ما الذي يقصده الشاعر بقوله (إبليس الأعور)؟ فالشاعر يبدو وكأنه رأى الشيطان بأم عينيه ، ونحن لا نفهم شيئا مما يقوله الشاعر في هذا التعبير، ويقول (الجنب الأيسر) في إشارة من الشاعر إلى القلب ويعترف الشاعر ويقرّ بقبض الشيطان بيده، وجلده مائتي

جلدة، وكأنّ الشيطان شيء مادي محسوس، إنها حقا معان غامضة رامزة، وقد ربطنا مائتي جلدة بالحدود التي حدها الإسلام فلم نجد من حدود الله الجلد مائتي جلدة، والمعنى يبقى غامضا غير مفهوم، وربما أراد به الشاعر معنى آخر لا يؤديه ظاهر العبارة وهذا الغموض الذي قصدناه، والذي لم يكن طاغ في قصائد الشاعر إلا ما ظهر من مثل هذه القصيدة.

6-تيمة أو موضوعة التوسل: وعن تصوفه يصور لنا الشاعر بن خلوف عن ولائه المطلق لشيوخ التصوف الذين سبقوه، ويركز بطريقة غير مباشرة على شيخ الطريقة القادرية عبد القادر الجيلاني، حيث يذكر على سبيل المثال: الساخي،سيدي شفيق، أبوزيد، الكراخي، عبد القادر الجيلاني، الشيخ بوعزة، الشاذلي، القرطبي، والنساجي، فيورد قائلا(بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 145.):

نتوسلو ابجاه الساخي سيدي شفيق ما يحرمنا
وأبازيد والكراخي بجاههم الله يرحمنا
راني في حمى الجيلاني والشيخ بوعزة مفرج الكراب
والشاذلي والقيرواني والقرطوبي والنساجي وحروف الكتاب

ويقول (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 150.):

دخيلنا لك بالقرآن وبجاه سيدي خير النساج
والبخاري والخولاني وبجاه سيدي منصور الحاج
والحرم ورجال السند والجنيد وكعب الأحبار

فالشاعر في تصوفه يتوسل بكل أولياء الله الأخيار، من دون أن يستثني أحدا، وكان يرجو شفاعة الله بوجههم الكريم، وعملهم الصالح الطاهر، ويبدو أنه كان متمسكا بالطريقة القادرية حيث يذكر في كل مرة زعيمها عبد القادر الجيلاني ويسميه بعدة أسماء، حيث يذكره بأنه (مولى بغداد، شيخ الشيوخ، إمام الأولياء، الجيلاني...)، وكل هذا نابع من روح إيمانيه فياضة تشبعت من حليب الثقافة الإسلامية والعقيدة السمحة، إيمانا وخلالا وخلقا حميدا، وزهدا، وتصوفا وخشية وورعا، ودعاء ورجاء للشفاعة من الله وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من خلال ما سبق يتضح أن شعر التصوف عند لخضر بن خلوف مستمد من ثقافته الدينية الواسعة، ومن رجل زاهد متصوف غارق في حب الله ورسوله، تشبع بتعاليم الاسلام واقتدى بخلال

الصحابة والخلفاء والتابعين وأخذ من زهد العلماء والأولياء والمتصوفة الصالحين، وبهذا بوأه الله مكانة المؤمنين والأولياء المخلصين الصالحين.

إنّ الشعر الصوفي عند الشاعر يتميز بالبساطة والوضوح تارة، والغموض والتلميح والالغاز والتكنية وعدم التصريح مرة ثانية ولقد سما به إلى نسق متميز من التعبير إلى مستوى تلك العاطفة الدينية النبيلة النابعة من إيمانه القوي ونفسه المستقيمة وعيشه المتواضع، فهي رسالة للمن شاء أن يستقيم ويتوجه الى الله بخلاص وطهر ونقاء.

إن شعر الشاعر أغلبه في مدح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفقط. لذلك فإن سبب شهرة الشاعر يعود إلى هذا المدح المتميز الخالص الذي يستسيغه المخيال الشعبي الجزائري، وتميل إلى حفظه الذاكرة الجماعية، ومن هذه المدائح والأذكار ما تقرأ في المساجد في أيام المناسبات كقصيدة (الخزانة) التي مطلعها (بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 65.):

لولا أنت لا كان خلقنا من تراب وفيه بالصح نرجعوا باليين

و منها الخروج تارة للحساب يوم لا ينفع مال و لا بنين

صلى الله عليك يا النبي العربي يا سراج الدهر يا أحمد بن يامينة

وسميت بالخزانة لأنها مرصعة بالذكر النافع كوصف للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم وشمائله ومعجزاته، وفيها خوف ورجاء ودعاء للمغفرة والشفاعة يوم القيامة، وفيها وصايا للمؤمنين يهتز لها قلب المؤمن في خشوع وإجلال لعظمة مشاهد ما بعد الموت، وصور يوم القيامة، كل هذا ساعد على حفظها وشاع ذكرها عند العامة، وبخاصة الجهة الغربية من الوطن.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الغزالي أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، صحح بإشراف الشيخ عبد العزيز السيروان دار القلم، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، دت.
2. حسّان عبد الحكيم: التصوّف في الشعر العربي نشأته وتطوّره، مطبعة الرسالة، 1954م.
3. بدوي عبد الرحمن: شهيدة الحُب الإلهي، مطبعة مصر، القاهرة، د.ت.

4. البرعي عبد الرحمن: الديوان، مطبعة الفجالة الحديثة، ط4، مصر، 1967م.

5. السلمي أبوعبد الرحمن: طبقات الصوفية، تح: نورالدين شريبة، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة،1986.

6. عميرة عبد الرحمن: التصوّف الإسلامي منهجاً وأسلوباً، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د.ت.

7. الكاشاني عبد الرازق: كشف الوجوه الغُر لمعاني نظم الدُّر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، د.ت.

8. الشعراني عبد الوهاب: لطائف المنن، المطبعة الميمنية، مصر، ج2، ط1، 1357هـ

9. ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، ط4، 1980م.

10. عبد القادر جلول دواجي: قراءة في سيرة الشاعر الشعبي سيدي لخضر بن خلوف/ مجلة الثقافة الشعبية، عدد 33.

11. محمد بن الغوثي بخوشة: ديوان سيدي الأخضر بن خلوف، شاعر الدين الوطن، مطبعة الشمال الإفريقي الرباط 1958م.

12. عبد القادر بن عيسى المستغانمي: مستغانم وأحوازها عبر العصور تاريخيا وثقافيا وفنيا، المطبعة العلاوية، الطبعة الأولى، مستغانم، 1996م.

13. عبد القادر جلول دواجي: الخطاب الشعري عند سيدي الأخضر بن خلوف دراسة فنية، مخطوط ماجستير، جامعة تلمسان 2002-2003، الملحق الشعري، قصيدة "ابقاو بالسلامة".

14. سونك: الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقيا والمغرب، موفم للنشر، الجزائر، 1994م.

15. بن الشيخ التلي: دراسات في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989م.

16. قاضي محمد: الكنز المكنون في الشعر الملحون، المطبعة الثعالبية. الجزائر، 1928 م.

17. ابن القيم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب: زاد المعاد، المطبعة المصرية، ط1، ج2 مصر1347/1928هـ.

18. المباركافوري صفي الرحمن: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 1418هـ.

19. سعد الله أبو القاسم تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة 1، 1998م.

20. التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (ENL) الجزائر، 1989م.

21. الجيلي عبد الكريم: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تح: أبو عبد الرّحمن صلاح بن محمّد بن عويضة، دار الكتب العلمِيّة، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.

22. مياسي ابراهيم: دور القادرية في نهضة سوف، جريدة البصائر الأسبوعية، عدد47.

23. مرتاض عبد الحكيم: الطرق الصوفية في الجزائر أصولها وتطورها سنةم1939، إشراف شايف عكاشة، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان 1998/م1999.

24. ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.